د. يوسف عبود ..مغامرة وذكريات

باسم عبد الحميد حمودي

عين يوسف عبود ابراهيم معلما في مدرسة ابتدائية في الحلة عام ١٩٣٠ لكنه فضل العمل في مدرسة ريفية في قرية "النيل" اسهاما منه في خدمة الجيل الجديد بعد ان هرب المعلمون من غير الحليين من المدارس الريفية ايامها لانتشار الملاريا وبائياً.

وكان هوس المعلم الشاب بتعلم اللغة الالمانية والسفر للدراسة في بلاد الجرمان شديدا فتعلم مبادئها على يد السيد عبد المجيد البيرماني موظف التسجيل العقاري في الحلة ايامها حيث كان البيرماني قد تعلمها في المدرسة الالمانية التي اسست ببغداد في نهاية الحكم العثماني، لكنه استطاع ان يوسع من معرفته باللغة على يد الاثاري رودولف ميخائيل الذي اقام معه في القصر الذي انشأته البعثة الالمانية في بابل قبل عام ١٩١٧ ثم تركته بعد قيام الحرب العالمية الاولى.

مذكرات عبود التي ننشر بعض فصولها في (ذاكرة) صدرت عام ١٩٤٩ بعنوان ذكريات طالب في برلين وتتضمن تفاصيل طريفة عن رحلته الى المانيا والى البلدان الاسكندنافية وهو في مرحلة التلمذة، وكان د.يوسف عبود قد نشر عام ١٩٤٧ جزءا من هذه الذكريات في كتاب صادر له في ذلك العام بعنوان (رحلتان) نفذت طبعته ايامها لغرابة الاجواء التي يصفها ذلك الطالب الشرقي المغامر الذي استطاع الحصول بشق الانفس على مساعدة وزارة المعارف العراقية ماليا وكانت قيمة هذه المساعدة لا تتجاوز الستين ديناراً سنويا ولمدة اربع سنوات وكان ذلك كافيا في تصوره لان يدرس الكيمياء ويعمل معا وقد نجح يوسف عبود في ذلك واكمل الدكتوراه بعد مشقة وعذاب فقد سجنته السلطات الالمانية ايام هتلر مرتين، مرة لاتهامه -وهو الغريب- بالاشتراك في حرق الرايخستاغ عام ١٩٣٩ وهو مجلس الامة الالماني، ومرة لمشاركته (المزعومة) في تظاهرة تحتج على هذا الحرق.

وكان اطلاق سراح يوسف عبود يتم بوساطة استاذ مرة وبمصادفة غريبة تتعلق باختلاف الاسم مرة اخرى.

المهم ان يوسف عبود يتيح لنا في تسجيل مذكراته هذه الاطلاع على جزء من مغامرة شاب عراقي اراد التعلم والاحتكاك الجاد بحضارة اخرى فنجح بامتياز اهله لان يكون استاذا للكيمياء في دار المعلمين العالية (كلية التربية بعد ذلك) سنوات طويلة وان يكون قريبا من هموم الطلبة ومشاكلهم متمتعاً بحيوية شاب وهو امر اهله لان يختاره المرحوم الدكتور عبد الجبار عبد الله رئيس جامعة بغداد عام ١٩٦٠ في منصب مستحدث هو (عميد الطلبة).

كانت مهمة عميد طلبة جامعة بغداد الاشراف على اقسام الطلبة الداخلية وتتبع معاملات الطلبة وشؤونهم وتذليل العقبات التي تصادفهم.

اثار عمل د.يوسف عبود مطلع عام ١٩٦٣ مشكلات متعددة بوجهه فلم يكن الرجل منحازا الى حزب من الاحزاب أو الى كتلة سياسية

وعندما حدث انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ زج بالدكتور يوسف عبود في السجن مع الكثيرين من اساتذة الجامعة يتقدمها رئيسها العام الدكتور عبد الجبار عبد الله.

وتمر شهور يطلق فيها سراح الرجل بعد معاناة ويعود استاذا في كليته حتى تقاعد بعد سنوات وانتقل الى رحمة الله عام ١٩٨٩,

طلبة دار المعلمين العالية القدامى يتذكرون تماما الملاحاة السنوية التي تتم شعرا بينه وبين العلامة الدكتور مصطفى جواد في حفلات التعارف والتخرج ويتذكرون تماما تفاصيل الحياة الجامعية الحقة التي كانتو يعيشونها مع اساتذة اجلاء من امثال عبود وجواد والجواهري والطاهر وعبد الرزاق محيي الدين وعلى المياح وحمدي يونس وعبد الجليل الزوبعي وعمداء هم اباء واساتذة معا امثال أ.كمال ابراهيم ود.خالد الهاشمي رحمهم الله.

نعمة السلام

ولم يكن بيني وبين السويد الا مضيق عرضه مائة كيلومتر يقع بين ميناء سانتس الالماني وميناء تريلبورغ السويدي تقطعه في الباخرة في زهاء خمس ساعات.. ولكن هذا المضيق لا يفصل ارضاً عن ارض فحسب بل انه يفصل عالما له خصائصه ومميزاته.. عن عالم آخر يختلف عنه كل الاختلاف في ملامحه ومعالمه، انه يفصل اوروبا التي تحاك فيها الدسائس وتنظم فيها المؤامرات والاحابيل وتشن فيها الحروب وتصطرع فيها الرغبات والشهوات والامال. وتحتدم فيها معارك حامية الوطيس في مختلف ضروب النشاط الانساني اقول يفصل هذا المضيق بلاد كهذه عن بلد أهم خصائصه الطمأنينة والسلام والوداعة والاخلاد الى راحة البال والهدوء... بلد لم يشهد اهلها الحرب منذ اكثر من ١٣٠ سنة حيث تتمتع السويد بنعيم السلم الدائم منذ سنة ١٨١٤ ولذا فقد وجهت جميع جهودها نحو اصلاح البلاد وعمرانها واستغلال ثرواتها الطبيعية فما تاريخ السويد منذ سنة ١٨١٤ الا تاريخ اقتصادي وتاريخ اجتماعي من اهم خصائصه الازدهار والنمو.

ويظهر اثر هذه الحياة السلمية الطويلة في السويديين في جميع تصرفاتهم وتفكيرهم وطريقة عيشهم بل في حياتهم العامة.. كان الفرد منهم صورة صادقة لقومه تتمثل في كل خصائصهم الاصيلة وصفاتهم العامة فعندما وصلت بي الباخرة الى اول ميناء سويدي وهو ميناء تريلبورغ جاءني موظف الباسبورت المختص وطلب مني جواز سفري فقدمته له بوجل ولما فتشه لم يجد فيه سمة الدخول الى السويد فسألني السبب فقلت له مبتسما: لمعرفة معاملة السويديين لي في مثل هذه الحالة فابتسم وقال لي: انها سمة دخول مجانا مع قدح من القهوة من كيسي الخاص حق التعارف.

ويظهر اثر السلام ايضا في شعور الامن والاستقرار السائد في طوال البلاد وعرضها. فلقد بقيت اكثر من شهرين اتجول في معظم انحاء البلاد السويدية على شواطئ بحارها وضفاف انهارها وبحيراتها العذبة، في حقولها وغاباتها، في مدنها وقراها وكنت اترك جميع ما املكه في الخيمة طوال النهار حتى منتصف الليل دون رقيب فلم تمسها يد سارق او عابر طريق. وصادف ان جئت مرة الى خيمتي لادخل فيها وكان بجانبها اطفال يلعبون فلما اردت الدخول فيها اعترضني الاطفال ولم يسمحوا لي بذلك الا بعد ان ابرزت لهم هويتي وطابقوا اسمي مع اسم بطاقتي المعلقة على باب الخيمة ثم اعتذروا مني من هذه المعارضة البريئة.

وبينما كنت سائرا في الطريق بين مدينة مالمو وميناء غوتبورغ اذا بالمطر يتدفق تدفقا اضطرني الى اللجوء الى بيت احد الفلاحين، فطرقت الباب برفق فجاءني صاحبها وبادرني بالدعوة لدخول الدار قبل ان يسمع مني ما اريد ان اقول لانه عرف ذلك من بلل ملابسي، فدخلت الدار وكانت العائلة جالسة تصطلي حول موقد النار، تشرب الشاي وتصغي الى موسيقى جميلة من (الراديو) فقدمت نفسي بعد التحية لاعضائها واجلسوني مكانا دافئا قرب النار ثم اختفت صاحبة الدار وظهرت نتحدث وكأننا من عائلة واحدة وكأن لم تكن بين بلادينا هذه المسافات الشاسعة وهذه الفروق الكبيرة فظهر لي خطل قول شاعر الامراطورية الانكليزية كبلنك "الشرق والغرب لا يلتقيان ابدا".

ان بين ميناء تريلبورغ الواقعة في اقصى جنوب السويد ومدينة استكهولم عاصمة السويد الواقعة في وسط الساحل الشرقي السويدي، مسافة طويلة تبلغ زهاء (٨٠٠) كيلومتر عن طريق مدينة غوتبورغ وعن طريق البحيرات العذبة في اواسط السويد، قطعتها في ثلاثة اسابيع بعد قسمتها الى اربع عشرة مرحلة، وكان معدل سرعة دراجتي (١٣) كيلومتراً في الساعة.

وكنت اظن في بادئ الامر ان جميع السويد مغطاة بغابات كثيفة الا انه ظهر لي ان مناطق جنوب السويد ووسطه ليست الا مناطق زراعية صناعية لا تختلف كثيرا عن المناطق الزراعية في اواسط اوروبا.. اما مناطق الغابات الكثيفة فهي تقع شمال السويد حيث تغطي مساحة قدرها ٨٤ مليون مشارة من ارض السويد، ولكن تأثير هذه الغابات واضح في الجنوب ايضا، فان صناعات الخشب ولباب الورق والكارتون وغيرها تلك الصناعات التي تستمد موادها الاولية من غابات الشمال الكثيفة التي تنقل عن طريق الطرق المائية المتشعبة في بلاد السويد كثير شائع هناك ويكفي القارئ ان يتصور اهمية هذه الصناعات الخشبية في حياة السويد الاقتصادية اذا عرف انها تؤلف ١٥ بالمئة من مجموع دخل السويد الوطني كما ان ربع عمال السويد يرتزقون من هذه الصناعات.

وبهذه المناسبة يجدر بي ان اذكر ان الصناعة السويدية تلعب دورا رئيسا في حياة السويد الاقتصادية اذ تشكل ٧٥ بالمائة من الدخل الوطني لا سيما صناعة انتاج الحديد التي تحتل مركزا مهما في الاسواق العالمية منذ اوساط القرن التاسع عشر والصناعات الهندسية الميكانيكية والكهربائية التي تقدمت كثيرا لقلة ثمن التيار الكهربائي من الشلالات المائية.. ولذا كان جمع غفير من اهل هذه المناطق الصناعية اثرياء جدا فقد كان في مدينة غوتبورغ وحدها ثلاثون مليونيرا.

في استكهولم

وبعد سفرة ممتعة متعبة وصلت عاصمة البلاد السويسرية مدينة ستكهولم الجميلة المشيدة على عدة جزر على سواحل البلطيق الغربية مقابل خليج فنلندا.. وقد ربطت هذه الجزر مع بعضها بجسور بديعة كثيرة العدد يشرف عليها من جهة الغرب جبل تغطيه غابات كثيفة.

وهي تمتاز بعمرانها وبحسن تنسيقها وبجمال موقعها وبمحلات التسلية الشعبية الكثيرة فيها، فهي والحق يقال عروس البلاد الشمالية قاطبة ووارثة تراث حضارة شمال اوروبية فقد كانت عاصمة البلاد البلطيقية في القرن السابع عشر ولم يحل آخر رباط بينها الا سنة ١٩٠٥ حيث انفصلت عنها النروج.

وفي استكهولم كما في سائر انحاء السويد.. جمال ورشاقة قل ما تراها في بلاد اخرى، فاهلها طوال القامة. ذوو وجوه صبيحة شعورهم ذهبية.. وعيونهم زرق جذابة تقرأ فيها براءة النفس ونبلها وتلمس في حديثهم صراحة القول وصدق النية وكرم الخلق، لا تسمع من اهلها كلمة خشنة ولا ترى فيها سلوكا مستهجنا ولم اسمع في مدينة اخرى من اوروبا كلمتي "شكرا وعفوا" بقدر ما سمعتها في استكهولم.

وقد منحتني هذه المدينة الخالدة صداقتها المتينة بشخص احد ابنائها الابرار وذلك انني كنت قد نصبت خيمتي الصغيرة فوق جبل المدينة الاخضر في وسط غابته الواسعة وتركت العلم العراقي المحبوب يرفرف عليها.

وفي الصباح التالي من وصولي نهضت من نومي ولما حاولت الخروج من الخيمة العتيدة لاحظت شخصا مسنا واقفا على بضعة امتار من الخيمة وبيده كتاب، فاختفيت حالا في الخيمة وصرت اراقبه من داخلها ظنا مني انه من رجال الشرطة السريين جاء ليمنعني من نصب الخيمة في هذه الغابة الشجراء وتبادر لذهني ان هذا الرجل الذي اقترب من خيمتي خلسة وطالعني فجأة، ان هو الا شرطي سيثيره ما ارتكبته من جرم فظيع اذ كنت قد تركت بالقرب من خيمتي رمادا كان من اثر النار التي اوقدتها البارحة، وكان ايقاد النار في الغابات ممنوعا منعا باتا في قوانين السويد والدول الاوروبية الاخرى حفاظا للغابات من نشوب النار فيها.

والحقيقة انني لا استطيع ان اصف الان ارتباكي في تلك الساعة الرهيبة اذ قد خيل الي السجن في هذه البلاد النائية عن الوطن. ولكنني تجلدت وقلت في نفسي ان اعتذر بجهلي بالقانون السويدي عند تعقد المشكلة، وهنا انتفضت من خيمتي.. وانا اتظاهر بالابتسام وتقدمت نحو الرجل وبدأته بتحية حارة فردها بأحسن منها.. وكنت انتظر ان يقول لي هيا الى مركز الشرطة ولكن يا لها من مفاجأة سارة حينها قال لي والابتسامة تعلو محياه انه احد رسامي استكهولم مر من هنا اليوم يتمتع بمنظر المدينة الجميل من هذا المحل المشرف عليها فرأى خيمتي وعرف من علمها انني اجنبي ثم ذهب الى بيته وفتش في دائرة معارف البلدان عن اسم القطر الذي يكون هذا علمه فوجد انه العراق.

وقد اخبر والدته العجوز التي تسكن معه

بذلك ففرحت وطلبت اليه ان يدعوني لتناول الفطور معها لان مسكنه لا يبعد الا مسافة قصيرة عن هذا الجبل، وقد تقبلت هذا اللطف وهذه العواطف الرقيقة بالشكر والامتنان وذهبت معه للتشرف بمعرفته وبمعرفة الام ولتناول الفطور مجانا في ذلك اليوم. وهذا هو الانطباع الاول الذي حصل عندي في استكهولم عاصمة البلاد.

وكان هذا الرسام اسمه السيد مارتين، ولا اريد ان اذكر اسمه الكامل ولا عنوانه خشية ان يقرر بعض المفلسين من القراء الكرام السفر الى استكهولم في المستقبل ويزعجه بتناول الفطور وغير الفطور عنده اقول وقد كان هذا الرسام يأتي الى خيمتي كل صباح حيث نذهب سوية لزيارة متاحف وغرائب استكهولم.. ولما اردت ترك هذه المدينة الجميلة سارع الى مكتبه واخرج منها كتابا قديما مكتوب باللغة الالمانية يرجع تاريخ طبعه الى سنة ١٧٧٢ وهو من تأليف الرحالة المشهور نيبور الذي زار الجزيرة العربية سنة ١٧٦٢ على رأس بعثة دنيماركية في عهد فريدريك الخامس ملك الدنيمارك ونشر هذا الكتاب الثمين بعد عشر سنين من تاريخ زيارته بعد ان مات رفاقه الاربعة بداء التخمة في اليمن وفي البلاد الشرقية الاخرى وكم كانت دهشتي عظيمة وفرحي كبيرا حينما قدم لي السيد مارتين هذا الكتاب ذكرى لزيارتي للبلاد الاسكندناوية.. ومما يجدر ذكره ان هذا الكتاب الذي لم ازل احتفظ به حتى الان يعد مرجعا مهما لوصف الجزيرة العربية وسكانها وشرح احوالهم السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها في تلك الفترة من الزمن.

ولم يكن من السهل علي ان اتجول في المدينة وان اتمتع بزيارة متاحفها ومشاهدة ضروب نشاط سكانها بنفسي بالطرق والاساليب التي انبعتها في الريف لصغر الريف وسعة المدينة، ففي احد الارياف السويدية استطعت ان اكون صديقا لرئيس البلدية في يوم واحد فقط بعد ان عرف انني من مدينة الف ليلة وليلة وكنت لذلك موقع رعاية وضيافة الجميع.. ولكن شأن الفرد في المدينة الكبيرة مهما عظم مركزه يكون ضئيلا تجاه شأن الجماعات؟ ولذلك رأيت ان افتش في استكهولم عن آخرين من امثالي لاكون منهم جماعة لها شأن اكبر من شأن الفرد بعد ان فهمت ان عشاق هذه المدينة من الطلبة الاجانب المفلسين كثيرون ولكن اين سأجد هؤلاء الزملاء.

ان طريقهم هم بلا شك طريقي فهم اذن موجودون في المحلات التي اتردد اليها: في المطاعم والمقاهي الرخيصة.. في نوادي الطلبة المجانية وعلى ساحات المدينة الواسعة وفي حدائقها العامة وعلاوة على ذلك فان هيئتهم وملابسهم الاسبورتية تشكل علامة فارقة لهم.

وبينما كنت سائرا في احد شوارع المدينة افكر في هذا الامر اذا انا امام بناية جميلة عرفت من الاعلانات الملصقة فوق جدرانها الخارجية وعلى مداخلها انها دار الاوبرا في استكهولم.. فرغبت في الدخول فيها لعلي احصل على بطاقة مخفضة لحضور عرض المساء، وما دخلت ردهتها الخارجية حتى اكتشفت وجود اربعة من زملائي طلاب جامعة برلين من الالمان ينتظرون مواجهة مدير الاوبرا للحصول على ترخيص خاص لمشاهدة عرض مساء ذلك اليوم مجانا. وبعد ان قدمت لهم نفسي رجوتهم ادخال اسمي في قائمة الترخيصات المجانية. ولم تمض على انتظارنا بضع دقائق حتى دخلنا على مدير الاوبرا والمؤسسات الثقافية الاخرى في استكهولم وكان خبيرا بامور الطلبة المالية فاستقبلنا بكل لطف وترحاب وقدم لنا جميع التسهيلات اللازمة لزيارة ما نرغب في زيارته من دور التمثيل والاوبرا والموسيقى و.. الخ مجانا لمدة اسبوع كامل... فشكرنا له هذه الاريحية وحمدنا له هذه العواطف السامية وخرجنا منه زهاء الساعة الحادية عشرة صباحا متجهين نحو احد المطاعم الرخيصة، وفي الطريق اراد احد زملائي ان يعرف مني الطريقة التي وصلت بها استكهولم، فلما سمعوا اسم الدراجة الهوائية صاحوا سوية بصوت عال: آه، ان ذلك امر متعب جدا وغير ضروري في هذه البلاد. فعجبت من كلامهم هذا وقلت لهم: ولكن هذا هو ارخص الطرق للاسفار. فلم يوافقني على ذلك مما سبب دهشتي واستغرابي. فهل هناك طريق آخر ارخص من هذا الطريق الوعر الذي سلكته لحكم ظروفي القاسية؟ "نعم" كان جوابهم لي، "لقد جئنا بسيارات خصوصية من برلين الى هنا دون ان يكلفنا ذلك فلسا واحدا" فقلت لهم واين سياراتكم؟ فقالوا: عند اصحابها فلم افهم من ذلك شيئاً ولكن احدهم اردف موضحا: حينما نريد السفر من محل الى آخر نقف على جانب الطريف فتمر السيارات الخصوصية المسافرة الى نفس الجهة التي نقصدها فنرفع لها ايدينا لتصطحبنا معها فلا يتردد اصحابها لحظة واحدة في اخذنا معهم في سياراتهم وهكذا قطعنا الطريق بين اول ميناء سويدي وهو تريلبورغ ومدينة استكهولم بمعدل (٢٠٠) كيلومتر في اليوم الواحد دون كلفة وعناء.. ولقد شعرت بعد سماعي اقوال هؤلاء الخبراء بالطرق الافلاسية بشيء من الحنق والامتعاض فقد كنت اعتقد قبلا انني قمت بالمعجزات بهذه السفرة بدراجتي الهوائية لقطع هذه المسافة الشاسعة بثمن بخس وما كنت اعرف ان هناك طريقة اسهل واسرع وارخص من طريقتي هذه.

وبينما كنا سائرين في طريقنا وانا اللوم نفسي لعدم استخدامي طريقة السيارات الخصوصية في هذ ه السفرة اذا بزملائي يدخلون مطعما من مطاعم المدينة كانوا يقصدونه فاعتذرت من الدخول معهم فيه لان ذلك قد يكلفني ما لا طاقة لي به ولكنهم اخبروني بأن المرء يستطيع ان يأكل ما يشاء من مطبوخ الطعام ومشويه من الساعة الحادية عشر صباحا الى الساعة الثانية بعد الظهر بمبلغ لا يتجاوز الثمانين اورة (زهاء ٤٠ فلسا) وكانت خطتهم في الطعام ان لا يتناولوا الفطور البتة بل هم اول من يزور هذا المطعم واخر من يتركه اما عشاؤهم فبسيط ومختصر بعد هذا الغذاء المطول فهو لا يكلفهم اكثر من ٢٠ فلسا. والحقيقة انني لم اكد اصدق ذلك حتى دخلت المطعم معهم ورأيت بأم عيني ما صنع هؤلاء العفاريت بالمطعم المسكين.

لقد نصبت منضدة واسعة في وسط المطعم تحوي انواع الاطعمة الباردة والحارة يأكل المرء منها ما يشاء بدون حساب ثم تأتي وجبة الطعام الاصلية الكاملة.. وقد بدأت مع اصحابي في تمام الحادية عشر ونحن ننتخب احسن والذ ما وضع على المنضدة الواسعة من المأكولات الشهية وكلما شعرنا بالتعب انقطعنا عن الاكل فترة ثم عدنا الكرة كأن لم نكن قد اكلنا قبل مدة وجيزة والحقيقة انني لم اجد تفسيرا مرضيا لسعة معدنا الخارقة في ذلك اليوم.. وما كدت اصدق بعد ان رأيت ما فعلنا في منضدة الطعام وان يكون ثمن ذلك (٨٠) اورة الا ان يكون اصحاب المطعم من سلالة شيوخ العشائر العربية نزحوا الى السويد ليعلموا السويديين التبذير الذي يسمونه كرما.. ولم اجرأ عند خروجي من المطعم ان ادفع الى صاحب المطعم ثمانين اورة بل دفعت له قطعة نقدية قيمتها كبيرة ليقطع منها ثمن الطعام وكم كانت دهشتي عظيمة حينما استقطع منها (٨٠) اورة فقط واعاد الي الباقي.

ولكن على الرغم من ذلك شعرت ان صاحب المطعم قد انتبه الى هذه الخسارة الفادحة ولذلك تأخرت في اليوم الثاني قليلا عن الساعة الحادية عشر حيث كان زملائي الاربعة على باب المطعم المنكوب بهم الا ان صاحب المطعم قد اخبرهم في هذه المرة بأن المطعم لا يقبل الزائرين من غير مشتركيه الدائمين الا بعد الساعة الثانية بعد الظهر وهكذا انتصرت عليهم في هذه المرة واثبت لهم انني اكثر منهم خبرة في مثل هذه الامور.

في اوسلو

لقد وصلت اوسلو عاصمة النروج بعد عناء شديد فقد ابتدأ موسم الامطار في النروج في آخر شهر آب وكان الطريق بين الحدود السويدية- النرويجدية حتى اوسلو طريقا جبليا. وكان الطريق بين الحدود تختلف بالنسبة الى نزولي او صعودي اليها بين ٣٥ كيلومتر و٣ كيلومترات في الساعة اذ كثيرا ما "تحرن" دراجتي وتضرب عن السير بسبب تجمع الاوحال على اطاراتها فاضطر الى حملها بدلا من ان تحملني هي وهكذا كنت رفيقا وفيا لها طول الطريق الى اوسلو.

وكانت تنبؤات رفيقي المهتوك في برلين فيما يخص تأشير سمة المرور على الحدود السويسرية- النرويجية صحيحة اذ لم اصادف غير التسهيلات من موظف الحدود في تأشير جواز السفر للمدة التي كنت ارغب ان اقضيها في النرويج بدون اي فلس بل لمجرد سماعه مني محاضرة عن العراق واهله.. وجودهم وكرمهم واخلاقهم.

وفي اواخر آب وصلت اوسلو ونصبت (كيسي) في النادي النسائي النرويجي للجذف والسباحة الواقع على احدى بحيرات اوسلو العذبة وكان موسم الجذف والسباحة -مع الاسف- قد مضى بسبب هطول الامطار وبعد ان تركت العلم العراقي يرفرف فوق صارية الخيمة وعلقت على واجهتها بطاقة تحمل اسمي واسم بلادي ذهبت توا الى المدينة اتجول في شوارعها واطوف في ساحاتها.

وبينما كنت جالسا في المقهى استمع الى موسيقى كريك الموسيقى النرويجي الشهير من فرقة نسائية اذا انا بنشرات صغيرة تفرق على الحاضرين مكتوبة باللغة الالمانية والنرويجية فيها ان البروفسور اوسكار رويتر احد اعضاء البعثة الاثرية الالمانية التي نقبت في بابل بين سنة ١٨٩٩-١٩١٧ تحت رئاسة البروفسور موسى كولدواي صاحب التصاميم الخيالية لعمران بابل (كما يرى ذلك الزائر للمتحف العراقي في بغداد) سيلقي محاضرة عن حفريات بابل في قاعة الجامعة في ٣١ آب ..١٩٤٣ وكنت قد سمعت قبل هذا بالاستاذ رويتر لما كنت في الحلة حيث كان يشغل في حفريات بابل وعرفت انه كان من معارف والدي هناك ثم تركت قبل هذا قد اطلعت على موضوع اطروحته للدكتوراه عن الفن المعماري في العراق مع نماذج كثيرة عن الفن المعماري في الحلة لذلك طرت فرحا لهذه المصادفة النادرة وزاد ابتهاجي ان الاستاذ المذكور سيعرض بعض الصور القيمة لحفريات بابل بالفانوس السحري.

وفي الوقت المعين غصت قاعة الجامعة الكبرى بالحاضرين من كلا الجنسين لا سيما الجنس اللطيف وكنت قد سبقت الحاضرين فجلست في الصف الامامي.. وكانت المحاضرة صورة حية لتلك الاعمال الاثرية الخالدة التي كشفت عن قسم مهم من تاريخ بابل وفنها وقد دامت نحوا من ساعتين.. ولكن لم الاحظ اي ملل او تعب على وجوه الحاضرين.. وبعد الانتهاء من المحاضرة هرولت مسرعا الى الاستاذ المذكور وقدمت له نفسي فمسكني من ذراعي واوقف قسما من الحاضرين القريبين منه كانوا يهمون بالانصراف وقال لهم:

"اسمحوا لي ان اقدم اليكم صورة حية من اهالي بابل، انها مفاجأة غريبة جدا" وجاء القوم نحوي والكل ينظر الي وكنت بالطبع اوزع ابتسامتي على الحاضرات قبل الحاضرين.. ثم اخبرني الاستاذ المذكور ان غدا هو اليوم الاول من ايلول وهو موعد افتتاح جامعة اوسلو.

واحرى بي ان لا اضيع هذه الفرصة واعطاني (بطاقة شرف) للحضور. وفي اليوم التالي كانت الجامعة وقاعتها تزهو بزوارها من خريجيها من مختلف الاعمار فقد كان الجمع مؤلفا من عجائز وشيوخ ربما شارفوا السبعين، ومن الشابات والشباب الذين دخلوا الجامعة هذه السنة وكانوا جميعا يلبسون بدلة الاحتفال السوداء مع طربوش اسود طويل وكانت مدينة اوسلو باجمعها تحت تأثير هذا الاحتفال الجامعي البديع.

لقد حضرت حفلة الافتتاح وكان الطلبة الحاضرون يجلسون تحت رايات جمعياتهم المختلفة يرتلون تلك الاناشيد التقليدية الخاصة باحتفال الافتتاح وكان محلي بين عجوز شمطاء هي احدى الخريجات القديمات وبين بنتها اليافعة التي تخرجت في هذا العام ونالت جائزة الجامعة في الآداب. ولا يمكنني ان انسى عواطف الامومة التي تجلتن في الام ساعة ذهاب بنتها لتسلم الجائزة بين هتاف الحاضرين وصياح اعضاء جمعيتها الادبية- بدموع الفرح التي كانت تجود بها عيناها في تلك اللحظة الجميلة من حياتها.

طفق المطر يهطل بدون انقطاع ليلا ونهارا في اوسلو منذ اول ايلول وقد استطاعت خيمتي ان تقاوم هذا المطر مدة عشرة ايام لياليها دون ان تستمح لقطرة واحدة من المطر من النفوذ اليها لا من السماء ولا من الارض اذ كانت ارضها معمولة من المطاط ولكن بعد هذه الايام العشرة وهت قوتها فاصبح المبيت فيها محالا علي كما كان من المستحيل علي في فندق اوسلو.. فماذا أصنع؟ هذه هي الورطة الهائلة!.

جلست افكر في الامر واستعرض ذهني ايام اسفاري في اواسط اوروبا وفي البلقان فخطر ببالي بيت التبن عند الفلاحين الذي تأوى اليه الكشافة في تنقلاتها في المحلات التي لا توجد فيها بيوت الشباب. ولكن اين هو بيت التبن من مدينة اوسلو الكبيرة؟

لكني ركتب دراجتي تاركا اوسلو للتفتيش عن بين من هذه البيوت وكان المطر شديدا وبعد قطع مسافة مقدارها نحو من خمسة عشر كيلومترا عن اوسلو وجدت احد هذه البيوت وكان واسعا مريحا فصعدت من سلم صغير مع دراجتي واثاثي ولوازمي وذهبت الى صاحب البيت لاستئذاته في السكنى والمنام فيه.. فرحب بي واذن لي في البقاء ما شئت فشكرت له بره وانصرفت الى فندقي الجديد.